

بواب مقام «السيدة خولة»

على مدخل مدينة بعلبك الرئيسي، هناك مقام لـ «السيدة خولة» التي يقال انها تنتسب إلى الإمام الحسين. كان المقام في الماضي متواضعا جداً: ضريحاً وغرفة وبناء قديماً وشجرة دهريّة حقاً يحتاج جذعها إلى خمسة رجال فاتحي الأذرع ليحيطوا به، وكان زوار المقام من أهالي بعلبك والجوار يشعرون برهية المكان الأليف والحميم، من خلال بساطته. كنت صغيراً عندما كانت جدتي تمسك بيدي وتأخذني إلى هناك، هي تصلي وأنا أحاول أن «أفك» حروف القرآن، مرات ومرات، حتى صارت لـ «السيدة خولة» في ذاكرتي محبة خاصة وصورة أقرب إلى المنام.



الشجرة القديمة العمرة ومقام السيدة خولة بعد تجديده في بعلبك (عبد الرحيم شلحة)

الساحر.
مقام «السيدة خولة»، منذ سنوات قليلة تحوّل إلى مزار ضخم: بناء عالٍ، وزخارف فسيفسائية داخلية وخارجية، ألوان، شريّات، بريق وأبهة، ومن حسن التدبير أن بقيت الشجرة الدهرية إياها كما كانت، وتمكّن مهندسو المقام الجديد من أن يفسحوا للشجرة الباسقة أن تستمر باسقة من أرض المقام إلى ما فوق البناء الجديد عبر فتحة واسعة يدخل منها نور الشمس والهواء... بقيت أمرّ على المقام الجديد، بين وقت وآخر، لكن، ممن دون أن أدري، لا أراه إلا

بحلته القديمة الطالعة من ذاكرتي لا كما ترى عيناى حالياً، على الرغم من ان ما تراه العين من الهندسة، جميل. ومروري على المقام شخصي مع ديني، إذ بالإضافة إلى منزلة صاحبة المقام الدافئ المعطر برائحة البخور في رأسي زمن الطفولة، كنت دائماً أرغب في استعادة جدتي إذا استطعت، ولو للحظة، وأحلف أنني لآزلت أوفق في كل مرة أقف أمام الضريح وأمام الشجرة الدهرية الغامضة.

غير ان ما يزعج، هو وقائع يتردد في بعلبك انها تحصل في شكل شبه يومي، مثل هذه «الواقعة»:

يوم الأحد الماضي، كانت الساعة تقترب من الواحدة ظهراً. أصل إلى باب المقام فأسمع شاباً «عنترتي» اللهجة، مكلفاً على ما يبدو «نظارة» الباب مشرفاً على الدخول والخروج، يكلم امرأة ناضجة (ومحجبة) بالقول ان حجابها غير كاف ليمسح لها (هو؟) بالدخول إلى المقام. جادلته المرأة قليلاً، فآزداد «عنترتي»، مزوجة بـ «الحرص» على الاحتشام والأخلاق»، فتركته وخرجت من باحة المقام. وسمعتها تقول غاضبة «بيحطولنا ولاد يبهدلونا ع باب ستي خولة!»

لست أدري من هو المسؤول عن مقام «ستي خولة»، ولا ما هي معايير الاحتشام التي وضعت لـ «السماح» لهذه المرأة أو تلك الفتاة بالدخول إليه، لكن بعدما تكررت هذه الواقعة ومثيلاتها مرارا، بحسب أهالي بعلبك، أليس بإمكان اللجنة المسؤولة عن شؤون المقام أن تكلف امرأة أو فتاة (طالباً ان الموضوع يتعلق بالزائرات) الوقوف على بابه الوحيد، تكون أكثر لطفاً وصبراً وهدوءاً وتواضعاً، وإيماناً طبعاً، من بعض الشبان «التمسحين» زيادة عن اللزوم، في هذه المواقع الوجدانية، كي يتم التفاهم مع بنات جنسها ما دام أبناء الجنس الآخر لا يستطيعون التمييز بين صفة «بواب السيدة خولة» و«بواب السلطان جنكيزخان»؟!

وليعدرني مقام السيدة خولة الجديد، اذا اعتقدت لوهلة، بعد ما رأته عيناى وسمعته أذناى، ان جدتي التي أذهب إلى المقام لأزأها كلما اشتقت إليها بعد رحيلها منذ عشرين عاماً، قد لا تستطيع الدخول إليه لو «عادت» اليوم، إذا لم يكن حجابها على مزاج «البواب» الجديد!

نسيت القول ان شيخاً مُعمّماً (صودف وجوده؟) في المقام كان شاهداً على ما جرى، وراقب من بعيد، من دون أن يظهر ما إذا كان سعيداً أم منزعجاً بهذا المشهد! جدتي، جدتي وطفلاً. سلّمي لي على ستي خولة وقولي لها انها ليست في حاجة إلى... بني شذا!

عبد الغني طليس